



يكتُب المجتمع الدولي، أو لا يعرف الحقيقة، عندما يروج لمقوله إبقاء على مؤسسات النظام في سوريا ضمن التسوية السياسية المنشودة. ومع ترجيح الاحتمال الأول، إلا أن تفنيـد علاقـة نظام الأسد بالـدولة والـمؤسسات ضرورة لأجل السـوريـين أنفسـهم أولاً، ولرؤـية الشـكل الذي أجهـز به تماماً على مـفهـوم المؤـسـسة، وسيـكون ضـروريـاً تـبـصـرـه في أـيـة تـسوـيـة مـقـبـلـة لأنـ الإـبقاء عـلـيـه لـغـمـ كـفـيلـ بـتـفـجيـرـها، أو بـتـعـطـيلـ مـشـروـعـ الدـولـةـ كـكـلـ.

ثـمةـ كـذـبةـ قـديـمةـ لـنـظـامـ الأـسـدـ، رـوـجـهاـ صـحـافـيونـ وـبـاحـثـونـ أـجـانـبـ وـعـربـ، فـضـلـاًـ عـنـ النـظـامـ، مـفـادـهـ أـنـ الأـسـدـ الـأـبـ نـقـلـ الـبـلـدـ مـنـ «ـالـشـرـعـيـةـ الثـوـرـيـةـ»ـ إـلـىـ «ـالـشـرـعـيـةـ الـدـسـتـورـيـةـ»ـ، خـلـاـفـاـ لـرـفـاقـهـ الـمـتـشـدـدـيـنـ الـذـيـنـ يـدـأـتـ تـسـتـهـوـيـهـ الـمـارـكـسـيـةـ وـالـمـاـوـيـةـ.ـ الـلـوـقـائـ الـمـبـكـرـ تـفـنـدـ هـذـاـ الزـعـمـ، فـحـافـظـ الـأـسـدـ الـذـيـ لـاـ تـسـتـهـوـيـهـ الـمـفـاهـيمـ الـثـوـرـيـةـ، لـمـ يـقـتـنـ يـوـمـاـ بـمـشـرـوعـ الـدـولـةـ، وـكـانـ لـافـتاـ فـيـ أـوـلـ حـكـومـةـ تـشـكـلـ بـعـدـ تـنـصـيبـهـ رـئـيـساـ، إـسـنـادـ حـقـيـقـيـةـ الـدـفـاعـ لـشـخـصـ لـمـ يـؤـدـ الخـدـمـةـ الـعـسـكـرـيـةـ، وـكـانـ قـبـلـ الـانـقلـابـ يـرـأسـ اـتـحـادـ الـطـلـبـةـ.ـ ذـلـكـ فـيـ الـوقـتـ الـذـيـ بـدـأـ نـجـمـ أـخـيـهـ رـفـعـتـ بـالـصـعـودـ السـرـعـيـعـ، رـفـعـتـ الـذـيـ تـسـلـمـ قـيـادـةـ الـفـرـقةـ 569ـ وـهـوـ فـيـ سـنـ الـثـلـاثـيـنـ،ـ وـأـشـرـفـ أـيـضاـ عـلـيـهـ لـغـمـ كـفـيلـ بـتـفـجيـرـهاـ، أوـ بـتـعـطـيلـ مـشـروـعـ الدـولـةـ كـكـلـ.ـ

جـديـرـ بـالـذـكـرـ أـنـ «ـسـرـايـاـ الـدـفـاعـ»ـ وـرـثـتـ مـهـامـ الـحـرسـ الـثـوـرـيـ الـبـعـثـيـ، لـكـنـ الـوـرـاثـةـ لـمـ تـأـتـ ضـمـنـ الـاـنـتـقـالـ إـلـىـ الـشـرـعـيـةـ الـدـسـتـورـيـةـ الـمـزـعـومـةـ، لـقـدـ كـانـ الـأـمـرـ أـشـبـهـ بـتـشـكـيلـ إـقـطـاعـةـ عـسـكـرـيـةـ ذاتـ اـمـتـياـزـاتـ خـاصـةـ، وـبـالـطـبعـ تـحـظـىـ باـسـتـقـالـلـيـةـ تـامـةـ وـإـنـ تـبـعـتـ شـكـلـيـاـ وـزـارـةـ الـدـفـاعـ.ـ فـيـ حـرـبـ تـشـرـينـ الـأـوـلـ (ـأـكـتوـبـرـ)ـ 1973ـ، تحـديـداـ فـيـ مـعرـكـةـ مـرـصـدـ جـبـلـ الشـيـخـ، سـيـصـعدـ نـجـمـ «ـالـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ»ـ بـقـيـادـةـ عـلـيـ حـيـدرـ.ـ إـثرـ الـحـرـبـ، سـتـظـهـرـ نـتـائـجـ الصـعـودـ بـتـطـوـيـبـ الـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ إـقـطـاعـيـةـ عـسـكـرـيـةـ تـتـضـخـمـ مـعـ الـحـاجـةـ إـلـيـهاـ إـثرـ دـخـولـ قـوـاتـ الـنـظـامـ إـلـىـ لـبـانـ.ـ حـيـنـهـاـ، لـمـ يـكـنـ اـسـمـ إـبـراهـيمـ الصـافـيـ، قـائـدـ الـفـرـقةـ الـأـوـلـىـ، قـدـ بـرـزـ،ـ لـكـنـ إـقـطـاعـيـتـهـ «ـالـفـرـقةـ الـأـوـلـىـ»ـ سـيـذـيـعـ صـيـتهاـ فـيـ ماـ بـعـدـ بـارـتـكـابـ مـجازـرـ فـيـ حـلـبـ وـحـمـاـةـ، قـبـلـ أـنـ يـُعـيـنـ قـائـدـاـ عـامـاـ لـلـقـوـاتـ فـيـ لـبـانـ.

حتـىـ 1980ـ، لـمـ يـكـنـ السـوـرـيـونـ يـدـرـكـونـ جـيدـاـ أـنـ مـؤـسـسـةـ الـجـيـشـ اـخـتـرـقـتـ عـمـلـيـاـ بـمـيـلـيشـيـاتـ تـبـعـ نـظـرـيـاـ لـهـاـ، وـلـمـنـاسـبـةـ الـمـواـجـهـةـ بـيـنـ الـنـظـامـ وـالـإـخـوـانـ سـتـظـهـرـ الـحـقـائقـ.ـ «ـأـبطـالـ»ـ تـلـكـ الـمـرـحـلـةـ كـانـواـ:ـ رـفـعـتـ الـأـسـدـ قـائـدـ «ـسـرـايـاـ الـدـفـاعـ»ـ، عـدـنـانـ الـأـسـدـ قـائـدـ «ـسـرـايـاـ الـصـرـاعـ»ـ، عـلـيـ حـيـدرـ قـائـدـ «ـالـوـحدـاتـ الـخـاصـةـ»ـ، شـفـيقـ فـيـاضـ قـائـدـ «ـالـفـرـقةـ الـثـالـثـةـ»ـ، إـبـراهـيمـ الصـافـيـ قـائـدـ «ـالـفـرـقةـ الـأـوـلـىـ»ـ.ـ هـذـهـ كـانـتـ تـشـكـيلـاتـ النـخـبـةـ الـمـحـسـوـبـةـ نـظـرـيـاـ عـلـىـ الـجـيـشـ،ـ أـمـاـ مـواـزـنـاتـهـاـ وـتـحـركـاتـهـاـ وـأـوـامـرـهـاـ فـتـقـرـرـ بـمـعـزلـ عـنـ الـدـوـلـةـ أـوـ مـنـ يـتـسـلـمـ مـنـصـبـ الـوـزـيرـ، وـكـانـ التـفـرـيقـ يـتـمـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ مـاـ تـبـقـيـ مـاـ يـسـمـيـ جـيـشاـ بـوـصـفـ الـأـخـيرـ

«جيش أبو شحادة»، نظراً إلى رثاثته وسوء حاله تسلیحاً وتدریباً وصولاً إلى الهدم. عملياً، جيش «أبو شحادة» وحده الذي يخضع لوزارة الدفاع، ويُخضع لفساد من نوع آخر أدنى.

على المقلب الأمني، ستعلم أسماء موازية في تلك المواجهة، كاللواء محمد الخولي رئيس «المخابرات الجوية»، والعميد آنذاك محمد ناصيف رئيس جهاز «الأمن الداخلي» في دمشق، والعقيد آنذاك علي دوبا رئيس فرع «المخابرات العسكرية»، والمقدم بهجت سليمان ضابط مخابرات «سرايا الدفاع» الذي سيتولى في ما بعد عدداً من المناصب الأمنية قبل تعينه سفيراً للنظام.

لقد صار واضحاً وقتها، أن البلد يخضع عملياً لسيطرة ميليشيات عسكرية وأمنية، ولاؤها المطلق للنظام، على قاعدة كونها إقطاعيات متآزرة ومتنافسة ضمن ما ترسمه العائلة «المالكة».

أصحاب الميليشيات الأمنية كانوا عموماً الأوفر حظاً في الاستمرار بعد قمع تلك الاحتجاجات، نظراً إلى كونهم لا يمتلكون قوات مقاتلة قد تهدد العائلة، ومشروع التوريث الذي بدأ يظهر جدياً منذ تطوع باسل الأسد في الجيش عام 1984، وهو العام الذي شهد أيضاً تحرك «سرايا الدفاع» التي يقودها عمّه رفعت، في محاولة وصفت بالانقلاب الفاشل. كما هو معلوم، كانت تلك هي اللحظة التي أدرك فيها حافظ الأسد ضرورة التخلص سريعاً من قادة ميليشياته، تمهيداً للتوريث. لكن لم يكن بلا مغزى، إن لم نقل إن فيه كل المغزى، أن يعمد في تلك اللحظة نفسها إلى تشكيل ميليشيا جديدة تحت مسمى «الحرس الجمهوري»، وأن يعهد بقيادتها إلى عدنان مخلوف، تسيبه من جهة زوجته. أي أن فكرة حل الميليشيات التي قد تشكل خطراً على الوراث لم تكن وحدها لطمئن بالأسد، هو الذي رسخ نظامه على وجود ميليشيا حامية. وبينما سُرّح ضباط سرايا الدفاع المشهورون بولائهم لرفعت، وُنُقل بعضهم إلى «جيش أبو شحادة» كعقوبة وتجريد من الامتيازات، يُشاع أن عناصرها وصغار الرتب نُقلوا إلى ما سيُشتهر لاحقاً باسم «الفرقة الرابعة» التي ستذهب قيادتها في ما بعد إلى ماهر الأسد، ويُقدر قوامهااليوم بـ15 ألف عنصر.

صناعة الميليشيات هي أفضل ما يوضح لنا اليوم سبب بروز أسماء جديدة قليلة وتنقلها بين جبهات المناطق الثائرة.

سنرى مثلاً، قائدين مثل عصام زهر الدين وسهيل الحسن يتنقلان بين شمال البلاد وجنوبها، والسبب هو اقتصار قوات النظام المدرية وصاحبة الامتيازات على قوات النخبة، وضمن قوات النخبة نفسها تُمنع الحظوة للقادة الذين أثبتوا فضلاً عن ولائهم المطلق، قسوة مطلقة ضمن قواعد الاشتباك. ولئلا يذهب الظن بعيداً، فالمقصود بالقسوة أيضاً ذلك الاستعداد المطلق للتضحية بالعناصر مقابل تحقيق النصر. على سبيل المثال، فقط قادة من هذا النوع لا يتورّعون عن دفع عناصرهم في حقل من الألغام، والتضحية بعدد كبير منهم لقاء تفجيرها واقتحام من يتحمّن خلفها.

بالطبع، للميليشيات العسكرية والأمنية سيطرة على الحياة العامة برمتها، ولقادتها باع مماثلة في تحقيق الثروات عبر طرق الفساد المعروفة، وغير فرض أتاوات على نشاطات اقتصادية تقع في مجال سيطرتهم. احتكار الميليشيات العسكرية، عبر «الحرس الجمهوري» و «الفرقة الرابعة»، لصالح العائلة، كان صدمة على الصعيد الاقتصادي بروز ظاهرتي مخلوف وحمشو كواجهتين اقتصاديتين، والهيمنة من خلال مئات الشركات على النشاطات الاقتصادية ذات المردود المرتفع أو السريع.

عندما يُحكى عن النظام، فهذه قوته الفاعلة وهذا هو جوهر فلسنته في الحكم، ولنا بعدها أن نتخيل كيف ستكون مساهمته المنتظرة في التسوية.

الحياة اللندنية

المصادر: